

تراسل الحواس في الأعمال الشعرية لـ "محمد جربوعة"

The synaesthesia in the Poetic Works of "Mohammed Jarboua"

حاتم أقطي

جامعة محمد خيضر بسكرة، مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري (الجزائر)،

hatem.agti@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2023/12/31

تاريخ القبول: 2023/12/31

تاريخ الاستلام: 2023/07/13

Abstract:

The research aims to show the usage of various patterns of synaesthesia at 'Mohammed Jarboua' poetry, through focusing on six poetry collections.

The research is based on descriptive and analytical approaches. It found that the main synaesthesia pattern used by the poet is visual/auditory synaesthesia especially the external type, in addition to several other synaesthesia patterns with different purposes in terms of building image of social reality or religious event, or creativity in describing his poetry purposes.

Key words: Synaesthesia, Semantic, Mohammed Jarboua poetry.

المخلص:

يهدف البحث إلى استعراض استعمال الأنماط المتنوعة للتراسل الحسي في شعر 'محمد جربوعة' بالتركيز على ستة دواوين شعرية له.

اعتمد البحث المنهجين الوصفي والتحليلي. وتوصل إلى أن أكثر أنماط التراسل الحسي استخدامات عند الشاعر هو التراسل البصري السمعي خاصة الخارجي منه، إضافة إلى عدة أنماط أخرى، باختلاف أغراض استخدامه بين إيصال صورة واقع اجتماعي أو حدث ديني أو الإبداع في وصف شعره ومقاصده.

الكلمات المفتاحية: تراسل حسي، دلالة، شعر محمد جربوعة.

1. مقدمة:

قد نجد فجوة كبيرة يصعب تجاهلها بين ما يقدمه الشاعر الجزائري المعاصر ومتلقيه، ربما يعود ذلك إلى تعقد القصيدة المعاصرة وبنائها الفني المركب. فتأتي فكرة هذا العمل البحثي لتركز على أحد أسس بناء القصيدة الذي قد يعمق الفجوة إذا لم يستوعب القارئ فنياته، بينما قد يعالج عقبات الفهم والتأويل لدى المتلقي بعد وعيه بدوره وتقنياته.

تركز الدراسة الحالية على البحث في استخدام 'تراسل الحواس' في الشعر العربي المعاصر بالتركيز على الأعمال الشعرية لـ 'محمد جربوعة'، علّ ذلك يساهم في تقريب مخالجات الشاعر وازدحام مدلولات القصيدة إلى المتلقي غير المتخصص، ويفتح آفاقاً للبحث والتأويل للقارئ المتخصص.

إن المتأمل في شعر 'محمد جربوعة' يلمس إبداعاً واسعاً مستنبط من تنوع وزخم مشاعره قادتته إلى رسم لوحة فنية عميقة المعنى، متعددة المشاهد، ذات أصول عربية إسلامية تتبنى تقلبات المحيط الاجتماعي في حاضره ويقظة لمستقبله، هو شعر يسحب قارئه ويفتح شهية الناقد والدارس والباحث.

ورغم تناول بعض الدراسات لأعمال محمد جربوعة أو للتراسل الحسي باعتباره أحد مظاهر الصورة الشعرية نذكر منها دراسة (العياضي، 2020) التي تناولت الصورة الحسية القائمة على تراسل الحواس في ديوان "أناشيد العلم والأمل" لناصر معماش. كذلك دراسة (أقطي، تراسل الحواس في ديوان صحوة الغيم لـ عبد الله العشي، 2021) التي قامت بتحليل أنماط تراسل الحواس وتحديد أكثرها هيمنة في الديوان. كذلك هدفت دراسة (زروقي، 2021) إلى استعراض تقنية تراسل الحواس في شعر "محمد خمار" من خلال نماذج مختارة مركزاً على أبعادها الدلالية والجمالية. وأقرب الدراسة إلى دراستنا هو ما قدمه (زروالي، 2020) الذي تتبع البحث في ظاهرة تراسل الحواس في الشعر الجزائري السبعيني. كما توجد دراسات سابقة ركزت على شعر 'محمد جربوعة' منها دراسة (رهيوبي و حاجي، 2017) بعنوان حوارية النصوص الغائبة في ديوان "الساعر" لمحمد جربوعة، والتي حاولت رصد جماليات التناص والوقوف على كيفية استحضار الشاعر للنصوص الغائبة وطريقة توظيفها في النصوص الحاضرة. كما تناولت دراسة (بن حليلة و سعد الله، 2019) بعنوان أشكال الصورة الشعرية في المديح النبوي المعاصر: قصيدة "قدر حبه" لمحمد جربوعة أنموذجاً، كل

من الصورة الاستعارية والتشبيه والكناية وبعض المحسنات البديعية خاصة المقابلة. وفي ذات المنحى والسياق ركزت دراسة (دروخ، د ت) على الشكل والإيقاع في قصائد المديح النبوي بالتركيز على قصيدة "قدر حبه" بغرض استنتاج اللامات الجمالية والتجديدية. في حين ذهبت دراسة (جلاوي، 2022) إلى تحليل ثنائية الهدم والبناء مركزا على تجلي ذلك في العتبة، ثم المعجم، ثم التخيل، ثم متن ديوان "ظل المطر" لمحمد جربوعة. وفي دراسة أخرى له ذهب إلى تسريد الشعر في أعمال محمد جربوعة (جلاوي، تسريد الشعر في تجربة محمد جربوعة بين القصصية وآليات السرد، 2021). كذلك تناولت دراسة (أقطي، 2020) علاقة الذات بالآخر في ديوان "ممن وقع هذا الزر الأحمر؟" لمحمد جربوعة. وركزت دراسة (طاهري، 2020) على البنية الزمنية في الخطاب الشعري في ديوان "الساعر" لمحمد جربوعة. كما درست بناء قصيدة السرد في ديواني "الساعر" و"حيزية" (طاهري و زاغز، آليات بناء قصيدة السرد الحديثة ومرجعياتها في ديواني "الساعر" و "حيزية" للشاعر محمد جربوعة، 2020) كذلك عالجت دراسة (بوغاغة و مدور، 2022) ظاهرة التناص الشعري عند محمد جربوعة بالوقوف على ظاهرة الشيقة بأبعادها وخلفياتها. وفي دراسة أخرى لهما ركزا على دراسة المعرب في شعر محمد جربوعة (بوغاغة و مدور، المعرب في شعر محمد جربوعة، 2022). وأعطى للتناص حظ أوفر من البحث أيضا في دراسة (جلاوي، شعرية التناص في شعر محمد جربوعة: الحضور، الأشكال، والوظائف، 2021). بينما هدف دراسة (يكوش، 2021) إلى اختبار الدور الجمالي للفواتح والخواتم في ديوان "اللوح" لمحمد جربوعة.

إلا أن أغلب هذه الدراسات السابقة لم تدرس تراسل الحواس في شعر محمد جربوعة أو تناولته كجزء، فلم تعطيه اهتماما كافيا، لذلك فإن الدراسة الحالية اختارت ستة دواوين شعرية قد تمثل جزءا مهما من الأعمال الشعرية للشاعر وهي كل من ديوان "اللوح"، "قدر حبه" "ثم سكت!!"، "ممن وقع هذا الزر الأحمر؟"، "مطر يتأمل قطرة من نافذته"، و"وعيناها..". من شأن ذلك أن يعطي صورة متكاملة عن توظيف التراسل الحسي عنده بأنماطه المختلفة. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل الآتي:

ما هي أهم أنماط التراسل الحسي اعتماداً في الأعمال الشعرية لـ 'محمد جبروعة'؟
وماذا قدمت من دلالات وإبداع؟

وللإجابة على الإشكالية تعتمد الدراسة الحالية المنهجين الوصفي والتحليلي بغرض الشرح والتوضيح أولاً ثم التفكير والاستنتاج ثانياً من أجل تقريب مقاصد ودلالات القصيدة للمتلقى.

2. الإطار النظري لتراسل الحواس:

أشار (زرزالي، 2020، صفحة 136) إلى أن تراسل الحواس "أحد المفاهيم التي تميزت بها المدرسة الرمزية وأطلق عليه مفهوم **correspondance** وترجم إلى عدة مصطلحات منها "تراسل الحواس"، "تزامن الحواس"، "توافق الحواس"، "التوافق" وترجم حسبه حتى بـ "نظرية العلاقات" ودُرس "التمازج في التفاعل الحسي"، وأفضل من تحدث عن تجربة تراسل الحواس هو الأديب والمؤلف الموسيقي الألماني 'هوفمان' (E. T. A. Hoffmann) في معرض حديثه عن موسيقى بيتهوفن (Ludwig van Beethoven).

اعتمد الشاعر منذ القدم التحام المدركات الحسية ليصنع منها إبداعاً ناتجاً عن انصهار سمات وظائف الحواس، فتصبح في مدرك واحد لأن "عملية تبادل مدركات الحواس عملية تشكيل الحواس في الصياغة الشعرية، وهذه العملية تشبه الذوبان الذي تتعرض له قطعة جليدية بتأثير حرارة الشمس حتى تتحول إلى سائل ذات سمات واحدة، وهذا ما يحدث للحواس عندما تتبادل وكل حاسة تؤدي وظيفة الحاسة الأخرى" (الوصيفي، 2003، صفحة 47).

واهتم أصحاب المدرسة الرمزية بصور التراسل الحسي، إذ "انتقلت عن طريقهم إلى الآداب العالمية، بما فيها أدبنا العربي الحديث" (زايد، 2002، صفحة 78)، واستمر اعتماد ظاهرة تراسل الحواس في الشعر العربي لتكون أكثر توظيفا في الشعر المعاصر، فظهر بأنماط متنوعة وبدلالات مختلفة.

إن تمازج الحواس هو بمثابة لعبة يمتلكها الشاعر، تنقله من حاسة إلى أخرى «فتذوب الفواصل، وتلغى الحواجز فيما بينها بقناعات يوفرها الشاعر؛ ليقربها من ذائقة

المتلقي ويقتعه بتقريب حاستين منفصلتين، على الرغم من تباعدهما الواقعي» (حميد عبد الله، 2010، صفحة 19).

وتنوعت آراء الباحثين والنقاد حول توظيف التراسل الحسي بين من رآه "ترفا زائدا وخروجاً على نظام اللغة وعرفها" (شراد، 1998، صفحة 196) فهو أمر عاد لا يثير الدهشة، وبين من عده جزءاً مسلماً به لا يتجزأ من اللغة، إذ ذهب تشارل بودلير (Charles Baudelaire) إلى القول: إن تراسل الحواس "أمر مقرر يمكن إثباته ابتداءً بدون أي تحليل أو مقارنة" (زايد، 2002، صفحة 78).

ومن الأدباء من رأى في استخدام التراسل الحسي كثيراً من الإبداع، لأنه يقدم العديد من الإضافات لكل من الشاعر والقارئ وحتى اللغة، فهو "يعطي للشاعر فرصة استثمار إحياء في حاستين أو أكثر وبذلك يكتف مشاعره ويركزها في الاتجاه الذي ينشده، يضاف إلى هذا أن تراسل الحواس مما يثري اللغة وينميها؛ لأنه يعني ضمناً أن ينأى الشاعر عن السياق المألوف للمفردة المعبرة عن حاسة ما، فينقل إليها مفردات حاسة أخرى، وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسة الواحدة" (الصائغ، 1997، صفحة 36)، وهذا يعني أن هذا الثراء اللغوي الذي يضيفه التراسل الحسي مع امتزاجه بكثافة وتنوع مقاصد الشاعر يعطي للقارئ مجالا رحبا للتفسير والتأويل ثم الاستمتاع بالحيرة والغموض.

3. التراسل الحسي في شعر 'محمد جربوعة'

وقد انقسم التراسل الحسي المستخدم في شعر 'محمد جربوعة' إلى نوعين: تراسلات داخلية (متلازمة) وهي: تراسلات تتم بين الحواس الخمس لا غير، أي تلتزم فيها الحاسة الواحدة بالعلاقات المباشرة مع صاحبها في الجوار، فتأخذ الواحدة منها وظيفة جارتها مباشرة (عين تسمع، أنف تتذوق أو تشم، أنف يرى...) (زروالي، 2020، صفحة 125)، وتراسلات خارجية (متعدية) تتم خارجياً بين خمستها أو بين ما يرتبط بها، دون المرور على بعضها بعض، أي تتعدى فيها الحاسة الواحدة نحو ما تقع عليه وظائف كل واحدة منها" (زروالي، 2020، صفحة 129)، وهو الأكثر استخداماً في قصائد 'محمد جربوعة'. ونورد منه نوعين في الأنماط الآتية:

1.3 الصورة البصرية/السمعية أو العكس:

لعل أول ما يعتمد الفرد في الملاحظة والإدراك هو البصر لتتبعه باقي الحواس، رغم أنه ليس كل ما يصل البصيرة يدرك بالعين، فقد تحل وظيفتها الأذن أو القلب... الخ، لذلك نجد في الشعر اعتماد تحويل حاسة البصر إلى حواس أخرى رغبة في الوصول إلى أعماق الدلالات وأبلغ التصوير، حيث إن الصورة الشعرية تحاول "أن تستعويض من خلال التعبير بالصورة البصرية عن مبدأ التعبير بالصورة اللفظية" (شمري و طبجون، 2021، صفحة 213) لتجسد خيالاً أوسع للقارئ.

ويؤكد نعيم اليافي أن "أغلب العلاقات في الصورة المتجاوبة تكون في اتجاهين اثنين: اللون المسموع واللحن المرئي، وفيها تتجاوب الأصوات والألوان وتتداخل". (اليافي، 2017، صفحة 195)

وقد استخدم 'محمد جربوعة' تحويلات حسية كثيرة، منها ما ورد في قصيدة 'قولي له':

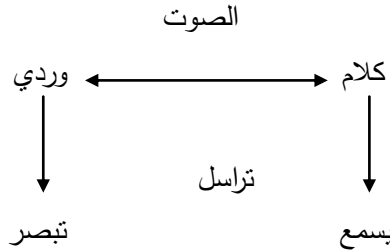
لم تقل شيئاً

وقد ظننتُ صديقُها

بأنّ كلامها الوردِيّ أقتعها

ومالت كي تداعبها (جربوعة، ديوان: وعيناها..، 2014، صفحة 20)

مزج الشاعر بين حاستي السمع والبصر فغيّر مدلول كل منها في السياق الشعري (كلامها الوردِي)، كما هو موضح في المخطط الآتي:



أصبح الكلام يدرك بحاسة البصر بعدما كان يدرك بالسمع، فيفعل الخيال تداخلت الحاستان وألفت صورة تراسلية بديعة. أراد الشاعر عبرها منح الكلام منزلة خارج نطاقه

المحسوس السمعي، فنقله إلى نطاق آخر يمكنه من استقاء حقه في الجمال والروعة، معبراً عن اللغة الشعرية المحلقة التي استخدمتها الصديقة لإقناع صديقتها.

لقد أنتجت حاسة البصر صورة موحية للون الورد المعبر عن جمال (مختار عمر، 1997، صفحة 137) ولغة شعرية تصل للقلب وتخرق التوازن الفكري فتجعل المرء أقل عقلانية، إذ يعجب باللون الزهري من هو غير ناضج (مختار عمر، 1997، صفحة 185).

فتح هذا النمط التصوري التراسلي مجالا رحبا في متناول الشاعر، حيث انصهرت حاسة السمع والبصر في النسق الشعري بشكل مكثف، فاستعاض عن كل حاسة بأخرى أو العكس، مما أسهم في تحريك مخيلة القارئ وإثارة دهشته، فكان لهذه الصورة التراسلية قيمة جمالية كسرت قواعد الصورة المألوفة.

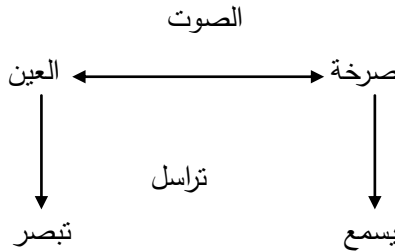
واستخدم الشاعر التراسل الحسي أيضا في قصيدة "سافيس الإرمية"، حين قال:

وضعتُ يُمْنِي على فيها

وطارتُ صرخَةُ العينين كالهددِ

في دَعْرِ شَدِيدٍ (جربوعة، ديوان اللوح، 2014، صفحة 178).

أضاف تراسل الحواس في هذا النموذج إيحائية إلى الصورة التشبيهية فارتقى بالدلالة من المستوى اللغوي العادي إلى مستوى رمزي أرفع، حيث وظّف الشاعر حاستي السمع والبصر وغيرَ منلول كل منهما في السياق الشعري (صرخة العينين)، كما في المخطط الآتي:



ومن هنا أصبح الصراخ يدرك بحاسة البصر بعد أن كان يدرك بالسمع، وذلك للتعبير عن حالة استثنائية تجسد الواقع بشكل دقيق وتصف لغة العيون التواصلية، فصراخ العين نلمسه في انشدادها وبروزها دلالة على الدهشة والخوف.

كما اعتمد الشاعر تراسل الحواس في قصيدة "شو بذك؟" .. إنه قنديل أمانة:

ماذا أقول لـ (ست الحسن) إن حزنتُ

لكي يرفرفَ في أشفارها الكُحلُ

وما أقول لمن بالشكِّ تحصرني

في (خانة اليك).. طول الوقت تتصلُّ؟ (جربوعة، ديوان: قدر حبه، 2014،

صفحة 91)

حدث تبادل لمجالات الإدراك وتراسل بين حاسة البصر (الكحل) وحاسة السمع (الرفرفة) التي إن أدركت دلت عن الفرحة.

وقد انشغل الشاعر في حزنه وألمه بحال نبينا وزوجه أم المؤمنين التي طعنت في شرفها، فما وجد من كلام يفيها حقها المحفوظ فبقي في حيرة يبحث عما يعيد به الفرحة إليها، حتى إنه أصبح محطّم القلب حزينًا يتألم لحادثة الإفك التي عطلت آلة الإبداع لديه، فعلقت متأثرة بما مس سيد الخلق وزوجه.

وعجزت لغة الشاعر عن استيعاب شغف قارئ متطلع إلى جديد القول الشعري يقتله الشك عبر قراءة كل لفظ وفق سلم الاحتمال.

2.3 صورة لمسية/بصرية أو العكس:

قد يصبح المعنى أوضح إذ انتقل من المجرد إلى المحسوس البصري في آن واحد، وربما يعطي للقارئ مجالا واسعا ليسرح في منلولاته المبتكرة لو تم تبادل للأدوار المرئي والملموس، وهو ما استطاع الشاعر تحقيقه في قصيدة "غزالة" بقوله:

لها جيدٌ إذا لتفتتَ خطيرٌ

ونصف الحُسن في الغزلانِ جيدٌ

وتجرح حين تنظرُ دون قصدٍ

ومهما المرءُ يهربُ أو يحدُّ (جربوعة، ديوان: ثم سكت، 2014،

صفحة 8)

تجلى التداخل الحسي بين اللمس والبصر في عبارة (تجرح حين تنتظر) دلالة على قوة تأثير العيون وقد كان لتشكل الصورة التراسلية دور في زيادة فاعلية الأداء الأدبي، حين أراد الشاعر وصف براءة الريم (تجرح دون قصد)، الذي تستدعي نظراته قصة الألم التي يعيشها لكونه دائما هو الضحية.

ولعل الريم هو رمز لكل فرد برئ يقع فريسة طاغية أو ظالم أو طامع، فاختزلت الصورة الحسية الرواية المفصلة لحال لا يمكن تجاهله ولواقع لا يمكن الهروب منه. ووردت صورة تراسل الحواس أيضا في قصيدة "سؤال خطير حول قبيلة بني عذرة":

في سوريا

احفظ وصايا

جدة كانت تغارُ عليك:

((خبئي نصف قلبك))

عن بنات الشام

لا تنظر إلى أشفاهنَّ

وما تيسر في البأبي من نصال)) (جربوعة، ديوان: ثم سكت، 2014، الصفحات 84-85)

عمد الشاعر إلى تحويل وظائف حاستين، حينما وصل لفظتي البأبي والنصال جامعا بين البصري واللمسي المتمثل في فعل التقطيع والتشريح، مشيرا إلى قوة تأثير لغة العيون الجارحة الآسرة، فكانت الصورة الأنسب للتغزل بعيون بنات الشام القادرة على بتر كل ناظر إليها.

ويرد التراسل الحسي في قول الشاعر من قصيدة "الحكيمة" أيضا:

لكنّ دكتورة حوراء فاتنة

أنيقة الشكل..في الخمسين..كالقمر

تنهّدت..وهي تلقي لي بنظرها

على حياء..وترميني على حذرٍ (جربوعة، ديوان ممن وقع هذا الزر

الأحمر؟، 2014، صفحة 61)

شكل التصوير الإستعاري صورة تراسلية في هذا المقطع الشعري، حيث إن للفعلين (تلقي وترميني) خاصية لمسية، و(النظرة) ذات بعد بصري مرئي، واستخدام لفظ الإلقاء يوحي بتمام وقوع الأمر كله بشكل فجائي سريع، كما يدل على مدى تأثير هذه الحوراء الفاتنة وحذرها الواشي بحياتها ورفعتها.

3.3 صورة سمعية/ذوقية:

اجتمع السمعي مع الذوقي في أحد أنماط التراسل الحسي الخارجي حينما قال "محمد جربوعة":

كلامك المرُّ في أُنِّي لم يزل

فكيف فكَّرت في رقمي لتتَّصلي؟ (جربوعة، ديوان ممن وقع هذا الزر

الأحمر؟، 2014، صفحة 163)

أسهم نقل الدوال من مستواها المؤلف إلى مستوى العدول بتراسل حاسني السمع والذوق في تكثيف الدلالة، حيث انتقل دال الكلام وهو صوت يدرك بالسمع إلى مستوى يدرك بالذوق ((المر) معمقا حالة التأسف والألم التي حزت في نفس الشاعر عندما لم تُدرك أهمية كتاباته.

وانتقال الكلام من خاصية السمع إلى خاصية الذوق ليزيد من قوة الإحساس، فالذوق أكثر صدقا ومدلولا من السمع، وبهذا نجح التراسل في تصوير الحالة الشعورية، وكشف عن عمق الحزن الذي لم يكن ليدرك لو بقي في دائرة السمع المتلاشي، لكنه صار مذاقا يزعج حلق الشاعر ويشعره بغصة تخنقه كلما أراد النطق.

وعادة ما يحيد التراسل الحسي عن الطبيعة "فلا يشترط في العلاقات الحسية أن تخضع للمنطقية" (الرويلي، 2022، صفحة 234)، وورد هذا في قول الشاعر في قصيدة "محاولة لشرح امرأة":

ويقال تأكل بالعيون وتشتهي

وبرقة الأنين فيه تشربُ (جربوعة، ديوان ممن وقع هذا الزر

الأحمر؟، 2014، صفحة 191)

أدّى تراسل الحواس هنا دوراً في تعميق الدلالة، حيث تبادلت الحواس وظائفها في عملية الإدراك فانتقل الأثر الشعري من دائرة الحس السمعي إلى حيز حاسة الذوق، مما يوقع المتلقي في حلقة الحيرة (فالعيون لا تأكل والأذنان لا يشريان).

وبرقة الأذنين تحمل دلالات على التعطش إلى سماع الكلام الجميل الرقيق، إذ عدلت هذه الدلالة إلى مستوى حسي آخر، وهو الذوق الذي تشير إليه كلمة (الشرب)، كون سماع الكلام اللبق يعيد للروح نشاطها كأنما ارتوت بماء عذب زلال.

4.3 صورة ذوقية/لمسية:

لم يوظف الشاعر هذا النوع من التراسل كثيراً فقد يكون للذوق مستوى دلالي أعمق في الغالب من اللمس.

وفي القليل مما ورد يقول الشاعر في قصيدة "قلب أخير لسيدة القلب الأخير":

وما تنعم في أيدي مخضبة

وأسكرته بلمسٍ فهو يمتثلُ (جربوعة، ديوان ممن وقع هذا الزر الأحمر؟،

2014، صفحة 76)

انتقل اللمس بتراسل الحواس إلى الإدراك بحاسة الذوق (السُكر)، ليحول إلى صورة ذوقية تمنح مشهد النشوة وغياب العقل تعبيراً عن الأثر الذي يخلفه القرب من الحبيب عكس ما يتركه الرحيل والابتعاد من مرارة الطعم.

5.3 صورة سمعية/لمسية:

يقول الشاعر في التداخل بين الصوت والحركة من قصيدة "تخمينات حول قطة

القصيدة":

فأخبرتها أنّ ربي تعالى

يقول: (يقولون ما لا ...)، فكفّي

أنا شاعرٌ، لا أحرك لحنا

بدون أصابع أنثى لعزفي (جربوعة، ديوان: مطر يتأمل القطعة من نافذته،

2014، صفحة 210)

تحول الكلام من السمع إلى اللمس في تراسل للحواس، حيث جعل الشاعر (اللحن) الذي يدرك بالسمع يتحرك ليمنحه وظيفة لمسية، فأكد - رغم غموض مقصده - أن ثمة حدثاً خلف الكتابة يحفز الخيال ويحرك شغف الانفعال فيأتي ميلاد القصيدة، ولذلك فقصائد الشاعر تُخفي خلف حروفها خوفاً أو استجابة لسيادة القصيدة أو تمتعاً بالتخفي وراء أنثى.

واستخدم الشاعر صورة التراسل الحسي في قصيدة "هروب شاعر نثري" ليظهر أن حضور القصيدة الموزونة يبطل الشعر النثري بطلان التيمم في حضور الماء:

وأنا على آرائه سنيّة..

بحضور ماء الشعر، لا أتيّم (جربوعة، ديوان: ثم سكت، 2014، صفحة 146)

حولت صورة التراسل الحسي الشعر الذي يمثل نسقا صوتيا يدرك بحاسة السمع، إلى حاسة اللمس بحيث صار الشعر المسموع ماء يتوضأ به الشاعر، ليؤكد أهمية الوزن لكونه أساس تحريك الوجدان، والقصيدة في رأيه لا تتخلى عن جرسيتها الآسرة؛ لأنها بمثابة الذكرى التي يحن لها القارئ في كل مرة.

6.3 صورة شمعية/بصرية:

ويحضر هذا النوع من التراسل الحسي في قصيدة "مطر ليلي"، وذلك في قول

الشاعر:

هل صحيح

أنك استنشقت وجهي

وأن الآن كريات اخضرار

مشرقات في الدماء؟ (جربوعة، ديوان: مطر يتأمل القطرة من نافذته، 2014، صفحة 168)

تحوّل الوجه بفعل تراسل الحواس من معطى حسي لمسي بصري إلى معطى شمي عطري بعناق لفظتين متباعتين (وجه-هواء) على نحو غريب، لتوحي هذه الصورة بحال متقلب يأتي كل مرة فيحرك جميع أنواع المشاعر الغامضة المركبة التي تعجز الكلمات عن وصفها.

7.3 صورة سمعية/لمسية أو العكس:

ورد التبادل بين السمع واللمس في قول الشاعر في قصيدة "رسائل الله إلى أمتنا

الأرض":

ثرى هل ستذكره
في الغياب الأصابع
كانت تقبله
إذ تقبله
كي تمسّ بصفحاته

بعض سحر العطور؟ (جربوعة، ديوان اللوح، 2014، صفحة 29)

حصل انتقال حاسة السمع للمس فأصبحت الأصابع والمسامات الجلدية المختصة بالتحسس واللمس من خلال هذا التحول تؤدي وظيفة السمع التي نستقيها من الكلام (ستذكره)، وبفعل هذا التبادل بين الحاستين الموظفتين في هذا المقطع الشعري نقلنا الشاعر إلى عالم البرزخ في حديث عن القبور ويوم البعث، حيث سيُنطق الله جميع أعضاء الجسد لتشهد اليد بما بطشت والقدم بما سلكت من سبل خير أو شر واللسان بما نطق والجلد بما تحسس ولمس.

وورد التراسل في قول الشاعر في قصيدة "لقطات نقول: يا الله":

أخبريني
من إذا القنديل في الشارع
أنهى الزيت..
والحارس قد نام قليلا

يرسلُ البدرَ ليأتينا بحفَنَاتِ ضياء؟ (جربوعة، ديوان اللوح، 2014، صفحة 79)

وقع تراسل بين خاصيتي اللمس والبصر ليجمع الشاعر الضوء في الحفَنَات (حفنات ضياء)، وورد التبادل في مجالات الإدراك في هذا المقطع الشعري ليؤكد لنا عبقرية إيصال أفكاره. فمهما ضاقت بنا الدنيا من ظلم وجور واسودت في أعيننا الحياة ثمة الخالق سبحانه وتعالى يرسل لنا رحماته من السماء فتقشع عن العين الظلمة وتهدي إلى مسلك التوفيق والأمان.

8.3 صورة شمعية/سمعية/بصرية:

يرى بودلير أن "الروائح والألوان والأصوات تتجاوب في وحدة معتمة عميقة، ويتعجب من الذين يرون أنه من غير الممكن أن تتبادل الحواس معطياتها، وأنه لا ينبغي أن يكون مثار دهشة لأحد لأن الذي يثير الدهشة بحق هو أن لا يستطيع النغم أن يوحى باللون، وأن تعجز الألوان عن إعطاء فكرة لحن ما" (زايد، 2002، صفحة 78)، فتبادل الحواس حسبه هو أمر مسلم به يستدعيه التشابه الموجود في الأشياء. وإن كان ترسل الحواس أمرا لا بد منه فلا يمكن نكران وظائفه الدلالية والجمالية، ولعل ما يقدمه المقطع الشعري الآتي من قصيدة "إذا" خير مثال:

إذا لم تجدْ للقصيدِ

لفظا يناسبُ أيّ فراغٍ

فضغ زهرةً في محلّ مضافٍ إليه

ستعرفُ كيف تصير الزهورُ كلاما (جربوعة، ديوان ممن وقع هذا الزر الأحمر؟،

2014، صفحة 126)

تتحول الزهور وهي ذات معطيات تشير إلى حاستي الشم والبصر إلى الكلام الذي يمثل حاسة السمع، فاللغة الرمزية التي يستخدمها الشاعر هي لغة غير مألوفة يسعى عبرها إلى تكثيف المعنى، إذ يتصل جمال الكلمة بجمال الطبيعة وتصبح القصيدة سنفونية يعزفها الوجود كله، وحين ذاك تمنح اللغة الشعرية نفحا طبييا لمستشقيها.

كما ورد التراسل الحسي في قول الشاعر من قصيدة "(شوبدك)؟.. إنه قنديل آمنة":

أين القوائدُ كانت زينتِي، وبها

في الليل أسهرُ بين الشمع أحتفلُ؟))

الشعر يأبى.. فما ذنبي إذا امتعتُ

قصائدُ العطر.. أو قد ردها الخجلُ؟ (جربوعة، ديوان: قدر

حبه، 2014، صفحة 92)

اشتركت أكثر من حاسة في هذا المقطع الشعري (قصائد العطر) فالقصائد تدرك

بحاستي البصر والسمع، بينما العطر يدرك بحاسة الشم.

وقد وظّف الشاعر هذا التراسل في الحواس بغرض الفخر والاعتزاز بقصائده، فالمتعطش لشعره الذوّاق لقصائده يتساءل عن الانقطاع، فيُجيبه الشاعر بلغة معبرة عن قمة إبداعه حيث يزواج حاسة الشم في القصائد (قصائد العطر)، لتجعلها مكتملة التناسق والإبداع في الروعة والجمال لا ينقصها سوى رشّة عطر لحضور حفل الاستقبال الذي أعده لها جمهورها.

4. تحليل النتائج:

أكثر أنماط التراسل الحسي اعتماداً عند 'محمد جربوعة' هو التبادل الحسي البصري/السمعي، عبّرت عن تفاعل مشاعر متنوعة بين الشاعر وجمهوره فهو يلومه لوم العزيز الغيور إن لم يهتدي بنور جملة وعطر قافيته. كما أوصل التراسل الحسي السمعي/الذوقي ألم الشاعر عندما لم تدرك أهمية كتاباته.

ويصالح الشاعر جمهوره فينقل له تأويله لصور أحداث دينية عديدة فوصف صرخة عيون فتاة قوم عاد فاستدعى التبادل الحسي بصري/سمعي، وخانتته كلماته الشعرية فلم يجد ما يعطي لألم المؤمنين حقها من حادثة الإفك وما استطاع أن يعيد فرحها فيرفرف الكحل في عينيها، فكان محطم القلب لما سما بسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي وصف الشاعر لرحمة الله تعالى بنا من خلال آياته الكونية ممثلة في حفنات ضياء البدر التي تلقى على كل يائس جاهل لطريقه، أعتد التبادل البصري/اللمسي.

وجه الشاعر المتلقي حتى يتمكن من فهم غموض شعره، فدلّه أن لكل ميلاد للقصيدة حدث حفز الخيال فحرك لحن الكلام، واستدعى ذلك التبادل الحسي السمعي/اللمسي، هذا الأخير استعان به الشاعر مرة أخرى لتأكيد قيمة الشعر الموزون، إذ بحضوره يبطل الشعر النثري بطلان التيمم في حضور ماء الشعر.

نقل الشاعر الحس البصري أو السمعي إلى حس شمي حين كان في لحظة الافتخار والاعتزاز بشعره الذي يتهيأ لحفل الاستقبال من قبل جمهوره برشّة عطر هي لمسة أخيرة ليكون في أبهى حله.

يتصل جمال الكلمة بجمال الطبيعة ممثلة في زهورها، فينصح الشاعر من خاتته كلماته إضافتها للقصيد فتعطيها دائما مغزى ودلالات عديدة، فالزهور كلاما متنوعا حسبها، وبهذا انتقل الحس البصري والشمي إلى حس سمعي.

رغب الشاعر في رسم صورة لحال كل ضحية برئ في مجتمع الطغاة فاستخدم التراسل الحسي البصري/اللمسي واختزل رواية الظلم في عبارة (تجرح حين تنتظر، تجرح دون قصد).

لم ينأى غرض الغزل من اعتماد التراسل الحسي الذي أعتمد لوصف عيون بنات الشام التي تقطع ناظرها وما تيسر في البآبي من نصال، فكان للتبادل الحسي البصري/اللمسي موعده.

لم يوظف الشاعر التراسل الحسي بين الذوق واللمس كثيرا، فقد يكون للذوق مستوى دلالي أعمق في الغالب من اللمس، لكنه أثبت قدرته على الارتقاء بالمعنى الأدبي حينما أراد الشاعر وصف قمة النشوة لقرب الحبيب فعبّر عنها بسُكر اللمس.

5. خاتمة:

يستعين الشاعر بالتراسل الحسي في كل مرة يرغب فيها الحديث عن شعره أو التعبير عن تموقعه ونظرته للشعر أو وصف التفاعل بين شعره وجمهوره.

كما يستدعي التراسل الحسي في كثير من مقاصده لرسم الوقائع الدينية، أو للتعبير عن مشاعره المتنوعة.

يملك التراسل الحسي من تفاعل جملة الحواس في بوتقة واحدة، فيعطي دقة تصويرية وارتقاء في المعنى فيضفي للكلام جمالا وإبداعا. وقد اعتمد الشاعر التراسل الحسي الخارجي أكثر من الداخلي.

6. قائمة المراجع:

1. أحمد العياضي. التراسل الحسي في شعر الأطفال: ديوان "أناشيد العلم والأمل" لناصر معماش أمودجا. مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، المجلد 5، العدد 19، 96-104، 2020.
2. أحمد مختار عمر. اللغة واللون. القاهرة: عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط 2، 1997.
3. الزبير دردوخ. المديح النبوي بين التقليد والتجديد/ لمسات جمالية وتجديدية في قصيدة "قادر حبه" (للشاعر الجزائري محمد جربوعة). قضايا الأدب، المجلد 2، العدد 1، 2017، 75-94.
4. أمجد حميد عبد الله. نظرية تراسل الحواس. بيروت: مكتبة لبنان البصائر، ط 1، 2010.

تراسل الحواس في الأعمال الشعرية لـ "محمد جربوعة"

5. جعفر زروالي. تراسل لحواس في الشعر السبعيني الجزائري. مجلة امارات في اللغة والأدب والنقد، المجلد 4، العدد 1، 123-139، 2020.
6. حورية بكوش. شعرية الفواتح والخواتم في الشعر الجزائري المعاصر (ديوان اللوح لمحمد جربوعة). جسور المعرفة، المجلد 7، العدد 3، 147-167، 2021.
7. سليم رهويوي، وأحمد حاجي. حوارية النصوص الغائبة في ديونا "الساعر" لمحمد جربوعة. العلامة، دراسات أدبية، العدد 4، 401-410، 2017.
8. شلتاغ عبود شراد. تطور الشعر العربي الحديث. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1998.
9. عبد الرحمان محمد الوصيفي. تراسل الحواس في الشعر العربي القديم. القاهرة: مكتبة الأدب، 2003.
10. عبد القادر علي زروقي. تراسل الحواس في شعر "محمد خمار": دراسة التشكيل الدلالي والجمالي. المدونة، المجلد 8، العدد 4، 3779-3800، 2021.
11. عبد الله بن متروك بن مصليخ الرويلي. الصورة الشعرية في شعر صالح عوده. مجلة الذاكرة، المجلد 10، العدد 1، 222-251، 2022.
12. عبلة بوغاغة، وعيسى مدور. التناسل الشعري عند محمد جربوعة. مجلة الآداب والعلوم الانسانية، المجلد 15، العدد 1، 325-344، 2022.
13. عبلة بوغاغة، وعيسى مدور. المعزب في شعر محمد جربوعة. مجلة النص، المجلد 8، العدد 1، 802-818، 2022.
14. عز الدين بن حليمة، وأبو القاسم سعد الله. أشكال الصورة الشعرية في المديح النبوي المعاصر: قصيدة "قدر حبه" لمحمد جربوعة أنموذجا. دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 11، العدد 1، 475-491، 2019.
15. عز الدين جلاوجي. الاغتراب والاحتراب: ثنائية الهدم والبناء في ديون "ظل مطر" لمحمد جربوعة. مجلة المعيار، المجلد 26، العدد 4، 690-714، 2022.
16. عز الدين جلاوجي. تسريد الشعر في تجربة محمد جربوعة بين القصصية وآليات السرد. مجلة الكلم، المجلد 6، العدد 1، 551-582، 2021.
17. عز الدين جلاوجي. شعرية التناص في شعر محمد جربوعة: الحضور، الأشكال، والوظائف. المدونة، المجلد 8، العدد 4، 3523-3554، 2021.
18. علي عشريني زايد. عن بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة: مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير، ط 4، 2002.
19. محمد الماكري. الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991.

20. محمد جربوعة. ديوان اللوح. الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
21. محمد جربوعة. ديوان ممن وقع هذا الزر الأحمر؟ الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
22. محمد جربوعة. ديوان: ثم سكت!! الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
23. محمد جربوعة. ديوان: قدر حبه. الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
24. محمد جربوعة. ديوان: مطر يتأمل القطرة من نافذته. الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
25. محمد جربوعة. ديوان: وعيناها.. الجزائر: البدر الساطع للطباعة والنشر، 2014.
26. نعيم اليافي. تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث . منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2017.
27. نوال أقطي. تراسل الحواس في ديوان صحوة الغيم لـ عبد الله العشي. مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 10، العدد 4، 433-449، 2021.
28. نوال أقطي. سلطة الذات وتهميش الآخر في ديوان (ممن وقع هذا الزر الأحمر؟) لمحمد جربوعة. مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 20، العدد 1، 619-640، 2020.
29. هجيرة طاهري. البنية الزمنية في الخطاب الشعري: ديوان "الساعر" لمحمد جربوعة أنموذجا. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 13، العدد 1، 115-133، 2020.
30. هجيرة طاهري، و نزيهة زاغز. أليات بناء قصيدة السرد الحديثة ومرجعياتها في ديواني "الساعر" و " حنيزة" للشاعر محمد جربوعة . رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2020.
31. وجدان عبد الإله الصائغ. الصورة البيانية في شعر محمد أبو ريشة. بيروت: دار مكتبة الحياة -مؤسسة الخليل التجارية-، 1997.